

التحرير والتنوير

وجملة (صرف اﻻ ﻗﻠﻮﺑﻬﻢ) ﻣﺴﺘﺌﻨﻔﺎ ﺑﻴﺎﻧﻴﺎ ﻟﺄﻥ ﻣﺎ ﺃﻓﺎﺩﻩ ﻗﻮﻟﻪ (ﺛﻢ ﺎﻧﺘﺮﻓﻮﺍ) ﻣﻦ ﺎﻧﺘﻔﺎﻋﻬﻢ ﺑﻤﺎ ﻓﻲ ﺗﻠﻚ ﺍﻟﺴﻮﺭﻩ ﻣﻦ ﺍﻟﺒﺨﺎﺭ ﺑﺎﻟﻤﻐﻴﺒﺎﺕ ﺍﻟﺪﺍﻝ ﻋﻠﻰ ﺻﺪﻕ ﺍﻟﺮﺳﻮﻝ A ﻳﺘﻴﺮ ﺳﻮﺍﻝ ﻣﻦ ﻳﺴﺄﻝ ﻋﻦ ﺳﺒﺐ ﺎﻧﺘﻔﺎﻋﻬﻢ ﺑﺬﻟﻚ ﻭﺍﻫﺘﺪﺍﺋﻬﻢ ﻓﻴﺠﺎﺏ ﺑﺄﻥ ﺍﻻ ﺳﺮﻑ ﻗﻠﻮﺑﻬﻢ ﻋﻦ ﺍﻟﻔﻬﻢ ﺑﺄﻣﺮ ﺗﻜﻮﻳﻨﻲ ﻓﺤﺮﻣﻮﺍ ﺍﻻﻧﺘﻔﺎﻋ ﺑﺄﺑﻠﻎ ﻭﺍﻋﻈ . ﻭﻛﺎﻥ ﺫﻟﻚ ﻋﻘﺎﺏﺎ ﻟﻬﻢ ﺑﺴﺒﺐ ﺎﻧﻬﻢ (ﻗﻮﻡ ﻻ ﻳﻔﻘﻬﻮﻥ) ﺍﻻ ﻻ ﻳﻔﻬﻤﻮﻥ ﺍﻟﺪﻻﺋﻞ ﺑﻤﻌﻨﻰ ﻻ ﻳﺘﻄﻠﺒﻮﻥ ﺍﻟﻬﺪﻯ ﺑﺎﻟﺘﺪﺑﻴﺮ ﻓﻴﻔﻬﻤﻮﺍ .

ﻭﺟﻌﻞ ﺟﻤﺎﻋﺔ ﻣﻦ ﺍﻟﻤﻔﺴﺮﻳﻦ ﻗﻮﻟﻪ (ﺳﺮﻑ ﺍﻻ ﻗﻠﻮﺑﻬﻢ) ﺩﻋﺎﺀ ﻋﻠﻴﻬﻢ ﻭﻻ ﺩﺍﻋﻲ ﺇﻟﻴﻪ ﻟﺄﻥ ﺩﻋﺎﺀ ﺍﻻ ﻋﻠﻰ ﻣﺨﻠﻮﻗﺎﺗﻪ ﺗﻜﻮﻳﻦ ﻛﻤﺎ ﺗﻘﺪﻡ ﻭﻻﻧﻪ ﻳﺄﺑﺎﻩ ﺗﺴﺒﻴﺒﻪ ﺑﻘﻮﻟﻪ (ﺑﺄﻧﻬﻢ ﻗﻮﻡ ﻻ ﻳﻔﻘﻬﻮﻥ) ﻭﻗﺪ ﺎﻋﺮﺽ ﺍﻟﻤﻔﺴﺮﻭﻥ ﻋﻦ ﺗﻔﺴﻴﺮ ﻫﺬﻩ ﺍﻻﻳﺔ ﺗﻔﺴﻴﺮﺍ ﻳﺒﻴﻦ ﺍﺳﺘﻔﺎﺩﺓ ﻣﻌﺎﻧﻴﻬﺎ ﻣﻦ ﻧﻈﻢ ﺍﻟﻜﻼﻡ ﻓﺄﺗﻮﺍ ﺑﻜﻼﻡ ﻳﺨﺎﻟﻪ ﺍﻟﻨﺎﻅﺮ ﺇﻛﺮﺍﻫﺎ ﻟﻬﺎ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﻤﻌﻨﻰ ﺍﻟﻤﺮﺍﺩ ﻭﺗﻘﺪﻳﺮﺍﺕ ﻻ ﻳﻨﺘﻠﺞ ﻟﻬﺎ ﺍﻟﻔﻮﺍﺩ .

(ﻟﻘﺪ ﺟﺎﺀﻛﻢ ﺭﺳﻮﻝ ﻣﻦ ﺎﻧﻔﺴﻜﻢ ﻋﺰﻳﺰ ﻋﻠﻴﻪ ﻣﺎ ﻋﻨﺘﻢ ﺣﺮﻳﺼ ﻋﻠﻴﻜﻢ ﺑﺎﻟﻤﻮﺋﻤﻨﻴﻦ ﺭﻋﻮﻑ ﺭﺣﻴﻢ ﻓﺈﻥ ﺗﻮﻟﻮﺍ ﻓﻘﻞ ﺣﺴﺒﻲ ﺍﻻ ﻻ ﺇﻟﻪ ﺇﻻ ﻫﻮ ﻋﻠﻴﻪ ﺗﻮﻛﻠﺖ ﻭﻫﻮ ﺭﺏ ﺍﻟﻌﺮﺵ ﺍﻟﻌﻈﻴﻢ) ﻛﺎﻧﺖ ﻫﺬﻩ ﺍﻟﺴﻮﺭﻩ ﺳﻮﺭﻩ ﺷﺪﺓ ﻭﻏﻠﻄﺔ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﻤﺸﺮﻛﻴﻦ ﻭﺍﻫﻞ ﺍﻟﻜﺘﺎﺏ ﻭﺍﻟﻤﻨﺎﻓﻘﻴﻦ ﻣﻦ ﺍﻫﻞ ﺍﻟﻤﺪﻳﻨﺔ ﻭﻣﻦ ﺍﻟﺄﻋﺮﺍﺏ ﻭﺍﻣﺮﺍ ﻟﻠﻤﻮﺋﻤﻨﻴﻦ ﺑﺎﻟﺠﻬﺎﺩ ﻭﺇﻧﺤﺎﺀ ﻋﻠﻰ ﺍﻟﻤﻘﺴﺮﻳﻦ ﻓﻲ ﺷﺄﻧﻪ . ﻭﺗﺨﻠﻞ ﺫﻟﻚ ﺗﻨﻮﻳﻪ ﺑﺎﻟﻤﺘﺼﻔﻴﻦ ﺑﺼﺪ ﺫﻟﻚ ﻣﻦ ﺍﻟﻤﻮﺋﻤﻨﻴﻦ ﺍﻟﺬﻳﻦ ﻫﺎﺟﺮﻭﺍ ﻭﺍﻟﺬﻳﻦ ﻧﺴﺮﻭﺍ ﻭﺍﺗﺒﻌﻮﺍ ﺍﻟﺮﺳﻮﻝ ﻓﻲ ﺳﺎﻋﺔ ﺍﻟﻌﺴﺮﺓ .

ﻓﺠﺎﺀﺕ ﺧﺎﺗﻤﺔ ﻫﺬﻩ ﺍﻟﺴﻮﺭﻩ ﺁﻳﺘﻴﻦ ﺑﺘﺬﻛﻴﺮﻫﻢ ﺑﺎﻟﻤﻨﺔ ﺑﻌﺌﺔ ﻣﺤﻤﺪ A ﻭﺍﻟﺘﻨﻮﻳﻪ ﺑﺼﻔﺎﺗﻪ ﺍﻟﺠﺎﻣﻌﺔ ﻟﻠﻜﻤﺎﻝ . ﻭﻣﻦ ﺎﺧﺼﻬﺎ ﺣﺮﺼﻪ ﻋﻠﻰ ﻫﺪﺍﻫﻢ ﻭﺭﻏﺒﺘﻪ ﻓﻲ ﺇﻳﻤﺎﻧﻬﻢ ﻭﺩﺧﻮﻟﻬﻢ ﻓﻲ ﺟﺎﻣﻌﺔ ﺍﻟﺒﻨﺎﺓ ﻟﻴﻜﻮﻥ ﺭﻭﺋﻮﻓﺎ ﺭﺣﻴﻤﺎ ﺑﻬﻢ ﻟﻴﻌﻠﻤﻮﺍ ﺎﻥ ﻣﺎ ﻟﻘﻴﻪ ﺍﻟﻤﻌﺮﺿﻮﻥ ﻋﻦ ﺍﻟﺒﻨﺎﺓ ﻣﻦ ﺍﻟﺒﻨﺎﺓ ﻋﻠﻴﻬﻢ ﺑﺎﻟﻘﻮﻝ ﻭﺍﻟﻔﻌﻞ ﻣﺎ ﻫﻮ ﺇﻻ ﺍﺳﺘﻮﻻﺥ ﻟﺤﺎﻟﻬﻢ . ﻭﻫﺬﺍ ﻣﻦ ﻣﻈﺎﻫﺮ ﺍﻟﺮﺣﻤﺔ ﺍﻟﺘﻲ ﺟﻌﻠﻬﺎ ﺍﻻ ﺗﻌﺎﻟﻰ ﻣﻘﺎﺭﻧﺔ ﻟﺒﻌﺌﺔ ﺭﺳﻮﻟﻪ A ﺑﻘﻮﻟﻪ (ﻭﻣﺎ ﺎﺭﺳﻠﻨﺎﻛ ﺇﻻ ﺭﺣﻤﺔ ﻟﻠﻌﺎﻟﻤﻴﻦ) ﺑﺤﻴﺚ ﺟﺎﺀ ﻓﻲ ﻫﺎﺗﻴﻦ ﺍﻻﻳﺘﻴﻦ ﺑﻤﺎ ﺷﺄﻧﻪ ﺎﻥ ﻳﺰﻳﻞ ﺍﻟﺤﺮﺝ ﻣﻦ ﻗﻠﻮﺏ ﺍﻟﻔﺮﻕ ﺍﻟﺘﻲ ﻧﺰﻟﺖ ﻓﻴﻬﻢ ﺁﻳﺎﺕ ﺍﻟﺸﺪﺓ ﻭﻋﻮﻣﻠﻮﺍ ﺑﺎﻟﻐﻠﻄﺔ ﺗﻌﻘﻴﺒﺎ ﻟﻠﺸﺪﺓ ﺑﺎﻟﺮﻓﻖ ﻭﻟﻠﻐﻠﻄﺔ ﺑﺎﻟﺮﺣﻤﺔ ﻭﻛﺬﻟﻚ ﻋﺎﺩﺓ ﺍﻟﻘﺮﺁﻥ . ﻓﻘﺪ ﺍﻧﻔﺘﺢ ﺑﻫﺎﺗﻴﻦ ﺍﻻﻳﺘﻴﻦ ﺑﺎﺏ ﺣﻈﻴﺮﺓ ﺍﻟﺒﻨﺎﺓ ﻭﺍﻟﺘﻮﺑﺔ ﻟﻴﺪﺧﻠﻬﺎ ﻣﻦ ﻭﻓﻘﻪ ﺍﻻ ﺇﻟﻴﻬﺎ .

ﻓﺎﻟﺠﻤﻠﺔ ﻣﺴﺘﺌﻨﻔﺎ ﺑﺎﺑﺘﺪﺍﺋﻴﺎ . ﻭﻓﻲ ﻭﻗﻮﻋﻬﺎ ﺁﺧﺮ ﺍﻟﺴﻮﺭﻩ ﻣﺎ ﻳﻜﺴﺒﻬﺎ ﻣﻌﻨﻰ ﺍﻟﺘﺬﻳﻞ ﻭﺍﻟﺨﻼﺻﺔ .

ﻓﺎﻟﺨﻄﺎﺏ ﺑﻘﻮﻟﻪ (ﺟﺎﺀﻛﻢ) ﻭﻣﺎ ﺗﺒﻌﻪ ﻣﻦ ﺍﻟﺨﻄﺎﺏ ﻣﻮﺟﻪ ﺇﻟﻰ ﺟﻤﻴﻊ ﺍﻟﺄﻣﺔ ﺍﻟﻤﺪﻋﻮﺓ ﻟﻠﺒﻨﺎﺓ . ﻭﺍﻟﻤﻘﺴﻮﺩ ﺑﺎﻟﺨﻄﺎﺏ ﺑﺎﺩﺉ ﺫﻱ ﺑﺪﻋﻬﻢ ﺍﻟﻤﻌﺮﺿﻮﻥ ﻣﻦ ﺍﻟﻤﺸﺮﻛﻴﻦ ﻭﺍﻟﻤﻨﺎﻓﻘﻴﻦ ﻣﻦ ﺍﻟﻌﺮﺏ ﺑﻘﺮﻳﻨﺔ ﻗﻮﻟﻪ ﻋﻘﺐ ﺍﻟﺨﻄﺎﺏ (ﺑﺎﻟﻤﻮﺋﻤﻨﻴﻦ ﺭﻋﻮﻑ ﺭﺣﻴﻢ) ﻭﺳﻴﺠﻴﺔ ﺎﻥ ﺍﻟﻤﻘﺴﻮﺩ ﺍﻟﻌﺮﺏ .

وافتحها بحرفي التأكيد وهما اللام و (قد) مع كون مضمونها مما لا يتطرق إليه الإنكار لقصد الاهتمام بهذه الجملة لأهمية الغرض الذي سيقت لأجله وهو الذي سنذكره ولأن فيما تضمنته ما ينكره المنافقون وهو كونه رسولا من الله ولأن في هذا التأكيد ما يجعل المخاطبين به منزلين منزلة المنكرين لمجيئه من حيث إنهم لم ينفعوا أنفسهم بهذا المجيء ولأن في هذا التأكيد تسجيلا عليهم مرادا به الإيماء إلى اقتراب الرحيل لأنه لما أعيد الإخبار بمجيئه وهو حاصل منذ أعوام طويلة كان ذلك كناية عن اقتراب انتهائه وهو تسجيل منه على المؤمنين وإيداع للمنافقين ومن بقي من المشركين . على أن آيات أخرى خوطب بها أهل الكتاب ونحوهم فأكدت بأقل من هذا التأكيد كقوله تعالى (يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفوا عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين وكقوله تعالى يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا) فما زادت الجملة في هذه السورة مؤكدة إلا لغرض أهم من إزالة الإنكار .

والمجيء : مستعمل مجازا في الخطاب بالدعوة إلى الدين . شبه توجهه إليهم بالخطاب الذي لم يكونوا يترقبونه بمجيء الوافد إلى الناس من مكان آخر . وهو استعمال شائع في القرآن .